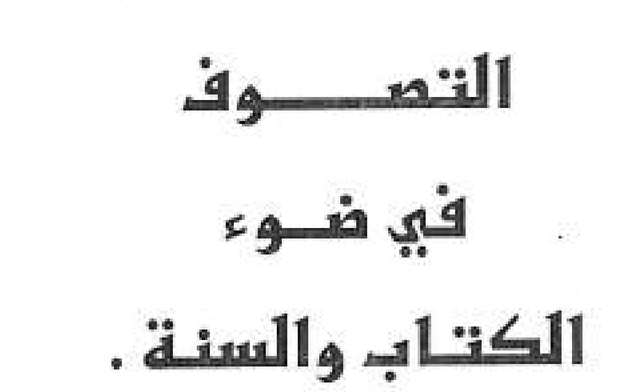


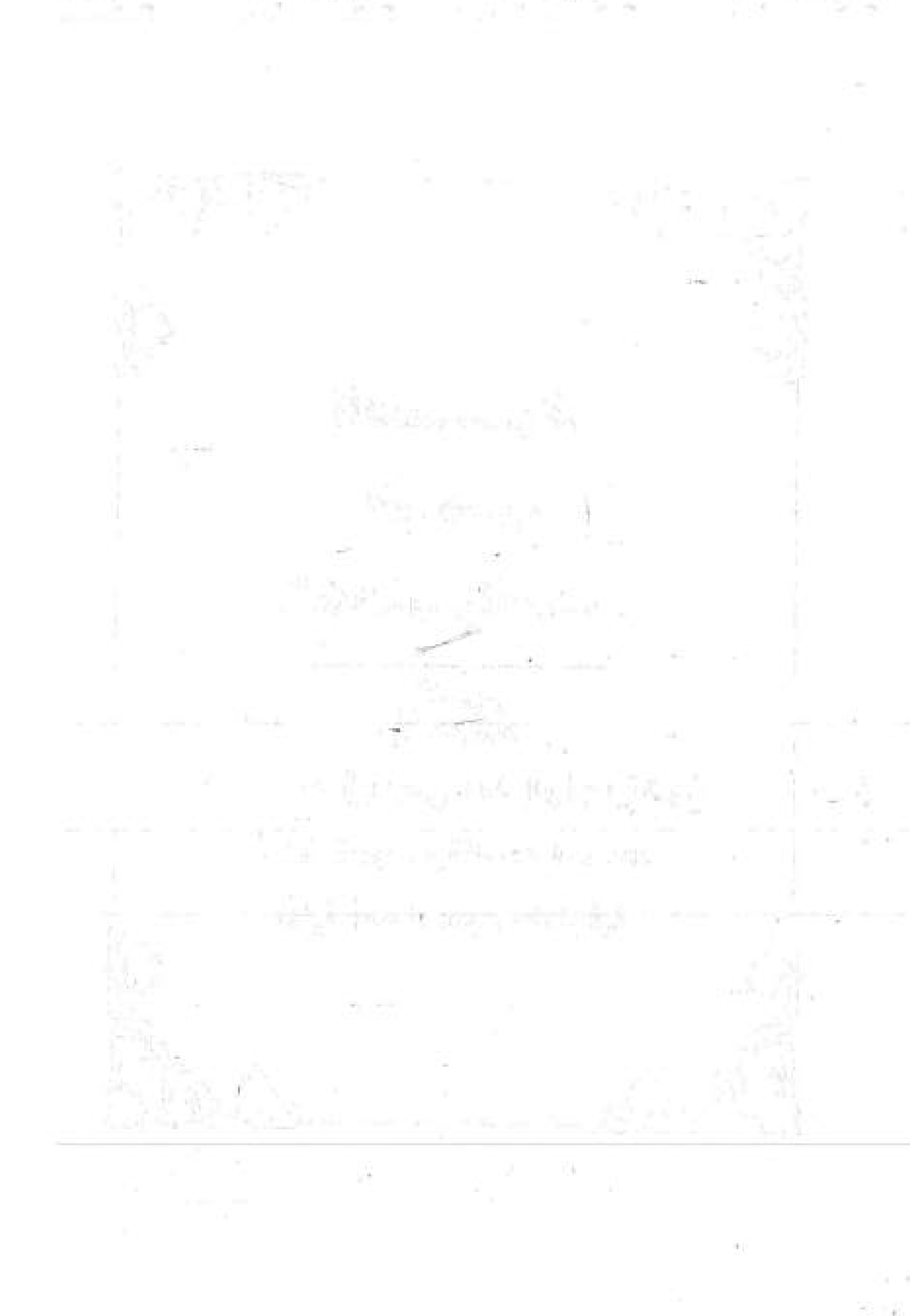
التصوف في ضوء الكتاب والسنة .



د . محمد البيومي عبد الواجد الشيخ

أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد

بكلية أصول الدين بالمنوفية



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد .

فإن قضية التصوف أخذت شوطاً كبيراً في الخلاف بين العلماء ، فمنهم مَنْ قبله ، ومنهم مَنْ رفضه ، ولعل الخلاف يكون دافعاً للبحث عن معرفة الحقيقة ، والخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية ما دام القصد والغاية الوصول إلى معرفة الحقيقة .

وقد أدليت بدلوي في هذه القضية ، واستخرت الله ﷻ فشرح صدري ، وسألته أن ييسر لهذه المهمة أمري للكتابة في موضوع " التصوف في ضوء الكتاب والسنة " .

ولما كان التصوف تذوق خاص يصطفي الله به مَنْ يشاء من عباده الذين قاموا بجهاد أنفسهم ، وأيدهم الله بإجراء الكرامات على أيديهم تكريماً لهم، وهي هبات ومنح من الله ﷻ لأوليائه الذين علم الله إخلاصهم وفناءهم في حبه ، فهو ليس باباً لكل وارد يدخله الواحد بعد الواحد ، ولكنه تجربة خاصة .

وقد كثر أدعياء التصوف ، والمنتسبين إلى ساحته بدون وعي أو روية ، فأساءوا إلى التصوف والمتصوفين ، تارة بمظهرهم ، وتارة بسلوكهم ، مما جعل الرافضين والمعاندين للتصوف يتخذون من هؤلاء الأدعياء مادة وسلاحاً للطعن في التصوف والمتصوفين ، ويسخرون منهم ويستهزئون بهم ، وليس هذا غريباً ففي كل علم من العلوم النظرية والعملية نجد

الأدعياء والدخلاء ، ومَنْ ليس لهم معرفة ولا دراية في أي تخصص ، يريدون أن يتقدموا على الأساتذة والمتخصصين ، قال الله ﷻ :

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ الرعد١٧ .

خطة البحث .

لهذا قمت بإعداد هذا البحث وعنونته :

(التصوف في ضوء الكتاب والسنة)

وقد قسمته إلى فصول :–

(١) **الفصل الأول :** اشتمل على أصل كلمة " تصوف " وآراء الباحثين فيها ومناقشة الآراء ، والزمن الذي أُطلق فيه هذا المصطلح على هذه الصفوة من عباد الله .

(٢) **الفصل الثاني :** تعرضت فيه لبعض التعريفات التي عُرف بها التصوف.

(٣) **الفصل الثالث :** تكلمت فيه عن المقامات .

(٤) **الفصل الرابع :** تكلمت فيه عن الأحوال .

(٥) **الفصل الخامس :** تحدثت فيه عن أسس التصوف الإسلامي في القرآن والسنة .

(٦) **الفصل السادس :** عرضت فيه نماذج من رجال أئمة التصوف في القرن الأول الهجري.

(٧) **الفصل السابع :** وضحت فيه أهم المدارس في التصوف .

(٨) **الفصل الثامن :** جئت فيه بنماذج لأئمة التصوف ورجاله ، وكانت الثمرة وختام البحث .

منهج البحث .

المنهج الذي تقوم عليه خطة البحث هو :-

* **المنهج النقدي** : فأقوم بعرض رأي المتصوف من خلال كتبه ، ثم أقوم بنقدها.

* **المنهج التحليلي** : فأعرض الرأي وأقوم بتحليل ألفاظه شارحاً لها .

* **المنهج الاستنباطي** : أقوم بعرض رأي مَنْ تكلموا في التصوف ، ثم أستنبط منها حسب توفيق الله ﷻ لي .

* **المنهج التاريخي** : حيث أعرض بعض النماذج من رجال التصوف حسب تدرجهم التاريخي ، ثم أقوم بعرض آرائه ومنهجه في طريق التصوف .

الباحث .

الفصل الأول .

حول معاني التصوف .

[١] أصل كلمة صوفي والآراء حولها .

[٢] مناقشة بعض ما ورد من آراء حول لفظ " صوفي " .

[٣] متى أُطلق المصطلح الصوفي ؟

[١] أصل كلمة " صوفي " والآراء حولها .

لقد تعرضت هذه الكلمة لكثير من الخلاف بين العلماء والباحثين ، في أصل اشتقاقها ونسبتها ، إلى آراء كثيرة ، نذكر منها :-

* أن " صوفي " نسبة إلى الشكل الخارجي ، وهو لبس " الصوف " ، وعلى هذا يعرف بأنه العابد الناسك المنقطع لعبادة ربه ، التارك لمتع الدنيا وزخارفها ، فهو يرتدي اللبُس الخشن من الصوف تاركاً فاخر الثياب ، وهذا الرأي يقول به الإمام "الطوسي " : " إن لفظ تصوف وصوفية أُطلق على أهل التصوف نسبة إلى ردائهم ؛ ولأنهم جُمَّاع المعارف والعلوم فلهم جميع الأحوال ، وتتغير أحوالهم هذه دائماً ، فلا يثبت عليهم اسم مطلقاً ؛ ولهذا استحسن إطلاق اسم ردائهم عليهم للتعرف بهم .(١)

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يصف الرسول ﷺ مادحاً له تواضعه : "ولبست الصوف وركبت الحمار " (٢)

* وقال بعض العلماء : إن كلمة " صوفي " تُقصد بها الصفاء النفسي من كدرات النفس ، وتخليصها مما يعكر صفوها .(٣)

---

(١) اللمع لسراج الطوسي ص١٧ .

(٢) الحركة الصوفية في الإسلام ـــ د.محمد علي أبو ريان ـــ دار المعرفة ـــ ص١١ .

(٣) المستشرق نيكلسون .

وهذه النسبة تشير إلى التطهر النفسي والصفاء القلبي ، فمعنى صافي وصوفي : أي تطهر ، فالصوفي على هذا هو " مَنْ صفت لله معاملته في السر والعلانية ، فظهرت له من الله ﷻ كرامات وهبات من فيوضات رب العالمين " .

وهذا المعنى خاص بالصوفي من داخل نفسه .

* وبعض العلماء أخذوها ـ أي صوفي ـ من الصف الأول ؛ لأن المريد دائما يكون في الصف الأول بين يدي الله ﷻ ، **يقول بشر بن الحارث** (ت سنة ٢٢٧هـ) :-

" قوم سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله ، فهم خاصة المؤمنين المقربين من الله ، الذين يعبدونه ليل نهار ، ويطيعون ما أنزل من شرائع " .

* وقال بعض العلماء : إن كلمة " صوفي " كاللقب لا قياس عليه ولا اشتقاق منه، فهو لفظ جامد (٤) ، وكأن هذه الطائفة أطلق عليهم هذا اللقب وعُرفوا به .

* وقال بعض العلماء : إن لفظ " صوفي " منسوب إلى الغوث بن مرة ، وكان قبل الإسلام ، يُقال إن أمه كان لا يعيش لها أولاد فعلقت للغوث هذا صوفة في مقدمة رأسه وجعلته بجوار الكعبة ، حسب نذر قد نذرته إذا ما عاش لها ولدها هذا ، ولهذا سُمي الغوث بصوفة ، وأُطلق هذا الاسم على الصوفية فيما بعد .

* وقال بعض العلماء : إن لفظ " صوفي " مشتق من صوفة القفا ، وهي خصلة شعر في مؤخرة الرأس ؛ ولهذا كان الزهاد يُطلقون شعورهم وراء

(٤) القشيري ـ الرسالة ص٢٠ .

أقفيتهم فترسل منها خصلة على مؤخرة العنق ؛ ولهذا كان يُطلق عليهم صوفية ؛ لأنهم مشغولون بالباطن غير مكترثين بظاهرهم وزينتهم .

* وقال بعض العلماء : إن لفظ " صوفي " مشتق من الكلمة اليونانية "صوفيا" ، ومعناها " الحكمة " . (٥)

* وقال بعض العلماء : إن لفظ " صوفي " منسوب إلى " الصُفَّة " ، وهو مكان بمسجد النبي ﷺ كان يعيش فيه جماعة من المسلمين وهبوا أنفسهم لعبادة ربهم، وقد تحدث عنهم القرآن الكريم في قوله ﷻ :

﴿ للفُقَراءِ الَّذينَ أُحصِرُوا في سَبيلِ اللَّهِ لاَ يَستَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسأَلُونَ النَّاسَ إلْحَافا ﴾ البقرة ١٧٣ .

وقوله ﷻ ﴿ وَاصبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ الكهف ٢٨ .

ويقول عنهم الإمام الطوسي : " كانوا لا يرجعون إلى ضرع ولا إلى تجارة ، وكان طعامهم ونومهم في المسجد ، وكان رسول ﷺ يؤانسهم ويجلس معهم ويأكل معهم ويحث الناس على إكرامهم ."

* وذهب بعض العلماء : أن لفظ " صوفي " منسوب إلى " الصِفَة " ؛ لأن السالكين يُوصفون بجميل الصفات في أقوالهم وأفعالهم .

وبعد أن أوردت ما قيل من آراء في أصل كلمة " صوفي " فهل نقبلها جميعاً ؟ أم نردها جملة ؟

إن البحث العلمي يقتضينا أن نناقشها ونقبل المعنى الذي يسير مع المنهج الإسلامي ، والمطابق للمنطوق العربي ، ويتناسب مع المعنى الروحي

(٥) المنقذ من الضلال ـــ د٠عبد الحليم محمود .

الذي عُرف به الصوفية ، فيتطابق المعنى اللغوي مع المعنى الروحي ؛ حتى نحقق الثمرة المرجوة من وراء هذا البحث .

[٢] مناقشة بعض ما ورد من آراء حول لفظ " صوفي " .

ما ورد من آراء حول معرفة أصل لفظ " صوفي " يحتاج إلى الوصول إلى المعنى الذي لا يتعارض مع المعنى الإسلامي ، وخاضعاً لقواعد اللغة العربية .

**** العرض والمناقشة** :- فمَنْ قال بأن لفظ " صوفي " يُنسب إلى الصوف ، يقول **د.أبو ريان** : " إن هذا الرأي لا يجد قبولاً عند أصحاب هذه التسمية ، فهم لا يقبلون إرجاع اللقب إلى معنى ارتداء الصوف."(٦)

وترك الرأي بلا تعليل للرفض ، وأنا أعلل لهذا بأن الصوفية من جهادهم لأنفسهم لا ينظرون إلى الشكل ن ولا يهمهم الملبس ، فهم يتعاملون مع الله لا مع الناس ، وإن كان **د.عبد الرحمن عميرة** يقول : " إذا كانت صوفي تنسب إلى الصوف فإنها مع ذلك موفقة كل التوفيق ، وقال هذا الرأي **جولد تسيهر**، وأيد هذا الرأي **نيكلسون**.(٧)

وفوق كل هذا يقول **الطوسي** في كتابه " **اللمع** " ــ ويُعتبر من أقدم ما كتب في التصوف ــ : "وتسميتهم صوفية ؛ لأنهم يلبسون الصوف ، وارتداء الصوف إنما كان دأب الأنبياء والصديقين والحواريين والزهاد ، واستدل بقوله ﷺ :-﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ المائدة ١١٢.

ويرى **ابن تيمية** " أن الصوفي منسوب إلى الصوف " (٨)

(٦) الحركة الصوفية في الإسلام ــ د.أبو ريان ص١٦ .
(٧) التصوف الإسلامي منهجاً وسلوكاً ــ عبد الرحمن عميرة ــ مكتبة الكليات الأزهرية ص١١.
(٨) حقيقة التصوف الإسلامي ــ د.أحمد البساطي ــ دار الطباعة المحمدية ص٢٩ .

فنسبهم الله إلى لباسهم الأبيض وعرفوا بظاهر اللبسة ، وكذلك الصوفية ينسبون إلى الشكل الخارجي .

وقال الحسن البصري : " أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف " (٩)

• وأما القول بأن لفظ صوفي مأخوذ من الصفاء ، فصلة الصفاء بالتصوف وثيقة لكنه من حيث اللغة مردود .

• وما قيل إن لفظ صوفي مأخوذ من أصل يوناني هو كلمة " صوفيا " اليونانية والأصل " سوفية " بمعنى حكيم ، أو أنها تدل على الحكمة بمعنى انتقائي ، أي أن التصوف يختار وينتقى أفضل وأصح العادات وينفذها بدليل وجود مادة "صفو " في اللغة العربية نقيض " الكدر " والنسبة إليه صفوي فرققت الصاد المضعفة ، وأبدل الضم واوا ، وأدغمت الواو الثقيلة في الياء ، فكانت اللفظة " صوفي " (١٠)

وأبو الريحان البيروني يقول : " إن لفظ صوفي مأخوذ من أصل يوناني"(١١) ونرد على هذا الرأي : أن لفظ " صوفي " لم ينقل من اليونانية إلى العربية ؛ لأن الجهد المضني والصنعة المتكلفة الواضحة للوصول بالاسم إلى اليونانية شيء غريب ، ونرى أن كثرة العمليات التي أجريت والقطع والضم حتى يستقيم المعنى جعلت منه شيئا بعيدا كل البعد عن الحقيقة .

• وأما نسبة " صوفي " إلى رجل يسمى " غوث " في الجاهلية ، ونذرت أمه ليجلس بجوار الكعبة ، فهو رأي مفتعل وملفق ، ولا ينطبق على الواقع ، فما الصلة بين صبي تنذره أمه وبين جماعة توجهوا إلى الله

(٩) التعرف لمذهب أهل التصوف ــ الكلاباذي ــ ط بيروت ص٧٢٦ .
(١٠) التصوف العربي ــ محمد ياسر طه ــ سنة ١٩٧٠م ــ ص٣٠ .
(١١) المنقذ من الضلال ــ د . عبد الحليم محمود ج١ص١٥ .

بكليتهم في السر والعلانية ، لا يفترون عن ذكر الله ونحن نبحث في التصوف الإسلامي .

* وما قيل إنها مأخوذة من نسبتها إلى صفة المسجد فتعارضها اللغة ، ونحن نرى أن كل هذه المعاني لكلمة تصوف تتوافر جميعها في الصوفية؛ لأننا إذا نظرنا إلى الشكل الخارجي نجد أن ملبسهم الصوف ، وكان ﷺ وهو القدوة الحسنة يلبس الصوف ، وإذا نظرنا إلى سلوكهم ومعاملاتهم نجدها عينة لينة ، كما وصف الله ﷻ :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾ الفرقان ٦٣ .

كما أخبر عنهم بقوله ﷻ : ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ﴾ الفرقان ٧٢. وأما قلوبهم فهي صافية نقية وفوق هذا فهم يحملون من الصفات أعلاها ومن كرائم الأخلاق أسماها ، ومع هذا نرى أن لفظ " صوفي " نسبة إلى لبسهم الصوف ومعرفتهم لهذا أختاره ؛ لأن هذا يرجع إلى الناس معرفتهم لهذه الصفوة من عباد الله فالناس تشتغل بهم وتبحث عنهم وهم مشتغلون بالله ﷻ كما يقول **الإمام القشيري** : " إن هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيُقال رجل صوفي ، وللجماعة صوفية"(١٢) ولا ينقص هذا من قدرهم ومنزلتهم فكل طائفة من الناس تعمل في عمل معين لهم لباس يميزهم عن غيرهم ، فهم معروفون للعوام بظاهرهم وللخواص بسلوكهم، قال الله ﷻ ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يونس ٦٢. وهم لم يلبسوا الخشن لأجل معرفة الناس لهم ولكن الناس قد عرفتهم بهذا وميزوهم عن غيرهم بمظهرهم الخارجي ولكن الصوفية يتعاملون مع الله دائماً .

(١٢) الرسالة القشيرية ــ القشيري ص٥٠ .

[٣] متى أُطلق المصطلح الصوفي ؟

اختلف الباحثون في تحديد الزمن الذي ظهر فيه المصطلح الصوفي وانفرد **صاحب اللمع** بأن " هذا اللفظ قديم وعُرف قبل العصر الإسلامي ، وإن لم يكن يُطلق حينذاك بالمعنى الاصطلاحي الذي اشتهر به في العصر الإسلامي" (١٣)

ولكن جميع مؤرخي التصوف يؤكدون بأن هذا اللفظ لم يكن شائعاً كمصطلح "صوفي " في عهد الرسول ﷺ ، وأيضاً لم يكن قد عرفه العرب قبل الإسلام ، فنجد في عهد الرسول ﷺ : كان **لفظ " الصحابي "** هو أسمى ما يمكن أن يتسمى به أحد من المؤمنين الذين شاهدوا رسول الله ﷺ أو عاشوا في عصره ، وكانوا نجوم عصرهم ، وما كان مصطلح يعلو على لفظ الصحابي في عهد رسول الله ﷺ .

أما الجيل الثاني : فإننا نجد أن **لفظ " التابعي"** هو اللقب المفضل على جميع الألقاب ، بل هو أسمى لقب عُرف به الجيل الثاني ، وكانوا بدورهم في أسمى منزلة وأرفع مقام ؛ لشدة تقواهم وصفاء إيمانهم ، وطهارة قلوبهم في قولهم وسلوكهم .

وفي النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ظهر اسم " الصوفي " وأُطلق أول الأمر على " **جابر بن حيان** " (١٤) ، وأطلق أيضاً على " **أبي هاشم الكوفي** " (ت١٥٠هـ)

---

(١٣) اللمع لأبي نصر الطوسي ص٤٠ .

(١٤) جابر بن حيان : كوفي الأصل وعالم الكيمياء ، شيعي المذهب .

وهذا الرأي قال به صاحب الرسالة القشيرية ، إلا أن ابن تيمية يرى أن اسم " صوفي " اشتهر وذاع بعد القرن الثالث الهجري ، ويرى ابن خلدون في مقدمته أن اسم " صوفي " أُطلق على الخاصة من الناس حسب رأيه .

ويظهر مما ذكرنا أن لفظ " صوفي " استعمل منذ بدء إطلاقه على الصفوة المختارة من المؤمنين في مدينة الكوفة ، ثم انتشر بعد ذلك حتى عم إطلاق لفظ " صوفية " على جميع متصوفة الإسلام في كل زمان ومكان .

الفصل الثاني .

معاني التصوف .

** تعريفات التصوف في أقوال الأئمة :-

إذا أردنا أن نصل إلى تعريف للتصوف فإننا لا نجد له تعريفاً محدداً مثل سائر العلوم ، بل لا تعرف علماً من العلوم له هذا الكم الهائل من التعريفات مثل ما للتصوف ، ولكنها مع كثرتها لا تعطينا تعريفاً جامعاً مانعاً بحيث يغنينا عن بقية التعريفات .

ولعل السبب في هذا يرجع إلى استحالة إدراك كل جوانب التصوف أو الإحاطة بها، مما يجعل جمع تلك المعاني في ألفاظ قليلة أمر صعب المنال ؛ لأن مذاق كل متصوف يختلف عن الآخر من حيث المعرفة والذوق والحال والمقام والسلوك ، وأن مَنْ له نصيب من صدق التوجه له نصيب من التصوف ، وأن نصيب كل فرد من أفراد التصوف حسب توجهه إلى ربه سبحانه ، وعلى قدر القرب يكون العطاء.

وعندما نرجع إلى تعريفا أئمة التصوف نجد أنهم عرّفوه بما يأتي :-

(١) التعريف الأول : لمعروف الكرخي .

الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق . (١٥)

ونحن إذا نظرنا إلى هذا التعريف نجد أنه يشير إلى أساسين هامين يُبنى عليهما التصوف عند الكرخي : **أولهما** : أن التصوف مبني على طلب الحقيقة ، هذه الحقيقة يختلف عن أداء الشعائر ؛ لهذا كانت مغايرة لما اتفق الفقهاء في عصره ، وإلا لما أفرد لها علماً خاصاً .

ثانيهما : الناحية العملية وتقتضي الالتزام بالزهد والتقشف ، فإن معنى اليأس مما في أيدي الخلائق الاستغناء بالكلية عنهم ، وعن كل شيء في

---

(١٥) القشيري ــ الرسالة القشيرية ص١٤٩ ، تذكرة الأولياء ج١ص٢٧١ .

أيديهم ، والاكتفاء بعطاء الله سبحانه ، والخلائق في مقابل الحقائق ، فيترك الاشتغال بالخلائق ويشتغل برب الخلائق .

فالتعريف يشتمل على ناحية نظرية هي الترك ، وناحية عملية وهي الاشتغال بالتوجيه السلوكي لتربية الروح على أساس من الجهاد الأكبر ، قال الله ﷻ :

﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾ العنكبوت ٦٩.

(٢) التعريف الثاني : لبشر الحافي .

" الصوفي من صفا قلبه لله " (١٦)

وإذا نظرنا إلى هذا التعريف نجد أنه يشير إلى لب التصوف وهدفه وغايته ، فالتصوف عند بشر تصفية وتطهر من كل شاغل نفسي ، وتجريد كامل لله ﷻ ، وكأنه ميلاد جديد للنفس حتى تصبح صفحة بيضاء خالية من جميع ما يبعدها عن الهدف والمقصد ، وهذا التطهر والنقاء النفسي استعلاء على غرائزها ومتطلباتها ، قال الله ﷻ ﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾ الشمس ٩ .

ويرى بشر أن طريق الوصول يأتي إما عن :

أ ــ طريق المجاهدة ، ووسيلته الزهد والتقشف ومحاربة نوازع الحس ورغائب الجسم ، وهذا منهج تصوف أهل السنة .

ب ــ وإما أن يكون عن طريق النظر والتأمل والفكر ، وهذا مبني على المنهج العقلي ، قال الله ﷻ ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب** ﴾ آل عمران ١٩٠.

(١٦) القشيرية ــ الرسالة ج١ص١١٢ .

وكلا الطريقين يوصل إلى غاية واحدة ، وهي الكشف والوجد أو ثمرة التجربة الذوقية التي يسعى إليها المريد ، ويجاهد من أجلها جميع السالكين .

كما أن طريقة التأمل والتدبر لا تأتي إلا بعد ترك الشواغل حتى يصفو العقل من كل ما يعكر عليه صفوه ، فالتغير بالكدر يبعد السالك عن الهدف ، وعلى المريد أن يقطع مراحل هذا الطريق بمقاماته وأحواله لكي يحقق ثمرة هذه التصفية ، وعلى قدر الإخلاص تأتي المكاشفات .

إن بداية الطريق فطم النفس عن العادات حتى تصفو صفاء كاملا عن كل ما يشغل عن الله ، وشغل الأوقات بالمجاهدة ، ونهاية الطريق جني ثمرات هذا الجهاد يفيض نور الله في قلوب العارفين .

(٣) التعريف الثالث : لسهل بن عبد الله التستري .

" الصوفي من يرى دمه هدرا وملكه مباحا " (١٧)

وهذا التعريف تفسره الآية الكريمة :-

﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ الأنعام ١٦٢-١٦٣.

فالتستري يرى أن الصوفي هو الذي لا يحاول أن يرتب لنفسه حقوقا على الغير في الدنيا ، و لا يضع بينه وبين الناس حدود ولا مطالب ، فهو يسمو بنفسه عن أي اتصال دنيوي يبعده عن الله سبحانه .

فكل ما يراه ملكا له فهو مباح للآخرين ، فلا يحزن لضياع ملك ؛ لأنه يرى أنه لا يملك شيئا ، ولو أهدر دمه لا يرد بالمثل ؛ لأن قلبه يحمل حبا يسع كل شيء ، فمن حبه لله يحب خلقه فيهب نفسه لهم بدون غضب عليهم .

(١٧) القشيري ــ الرسالة ص١٤٩ .

وهنا اعتراض يفرض نفسه : كيف يكون المتصوف سلبيا إلى هذه الدرجة ؟ يترك نفسه تهدر وملكه مباح لكل آخذ وناهب ؟

والجواب : أن هذا استفهام لأصحاب النظر السطحي ، ولكن إذا تعمقنا في التعريف نجد أن السالك عندما يتعامل مع الله يكون الله حسبه ، ومدافع عنه ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه ..** ﴾ الطلاق ٣ .

ونحن نرى أن بعض الناس يعطي حصانة دنيوية فلا يستطيع أحد ـ حسب منصبه وحصانته ـ أن يقتحم أسوار منزله ، فكيف بمن يكون في حصانة ربه ؟

والقرآن الكريم يوضح لنا هذا عندما راودت امرأة العزيز سيدنا يوسف عليه السلام فقال ﴿ **معاذ الله** ﴾ يوسف ٢٣ .

وعندما اجتمعن بكيدهن عليه قال ﴿ **إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين** ﴾ فكانت الإجابة ﴿ **فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم** ﴾ يوسف ٣٤ .

وهذا هو التسليم الكلي لله يدبر أمر من يفوض الأمر إليه ويدافع عن العبد المؤمن ﴿ **إن الله يدافع عن الذين آمنوا ...** ﴾ الحج ٣٨ .

(٤) التعريف الرابع : لأبي سعيد الخراز (ت٢٨٦هـ) .

" **الصوفي هو الذي صفا قلبه فامتلأ نورا** " .

ونرى أبا سعيد يشير بهذا التعريف إلى طريق الوصول بالمجاهدة إلى درجة صفاء القلب حتى يكون مرآة صافية من كل شائبة ، بعد هذا يقذف الله في هذا القلب نورا من عنده ، فيمر القلب بأمرين : أولا : التخلية ، تعقبها التحلية ﴿ **نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء** ﴾ النور ٣٥.

(٥) **التعريف الخامس : لسمنون (ت٢٩٧هـ) .**

" **التصوف أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء** " (١٨)

ونرى من ثنايا هذا التعريف أن المتصوف هو الذي يؤثر الآخرة على الدنيا ، ويعتبر أن ما يجعل الإنسان يتعلق بالدنيا ، مثل الولد والمال ، وجميع ما في الدنيا متع زائلة ﴿ **قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا** ﴾ النساء ٧٧

يبتعد عنها فلا يكون مملوكا لشيء ، بل يحرر نفسه من غرائزها ويكون عبد لله وحده .

(٦) **التعريف السادس : لأبي رويم محمد البغدادي (ت٣٠٣هـ) .**

" **التصوف هو استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد** " (١٩)

إنه يرى أن المتصوف لا يكون له مع الله إرادة ، ويؤثر البذل والعطاء ، ويكون دائما مستغنيا عن الخلق مفتقرا إلى مولاه في كل الأحوال ، قال الله ﷻ ﴿ **فعال لما يريد** ﴾ البروج ١٦ .

(٧) **التعريف السابع : لأبي بكر الكتاني (ت٣٢٢هـ) .**

عرف التصوف بأنه : " **صفاء ومشاهدة** " (٢٠)

فالكتاني يرى أن التصوف تطهير النفس مما يتعلق بها من الغفلة حتى تصفو كالمرآة فتتمتع بنور المشاهدة ﴿**وجوه يومئذ ناضرة .إلى ربها ناظرة** ﴾القيامة ٢٢-٢٣ .

---

(١٨) حلية الأولياء ص١٢٠ .
(١٩) حلية الأولياء ص١٢٠ .
(٢٠) حلية الأولياء ص١٢٠ .

(٨) التعريف الثامن : لأبي علي الروزبادي (ت٣٥٠هـ) .

عرف التصوف بأنه : " **صفوة القرب بعد كدورة البعد** " (٢١)

فالتصوف بهذا مبني على أمرين : الابتعاد عن مطالبة النفس والاقتراب من مطالب الروح﴿**قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**﴾الشمس ٩-١٠.

إن البعد عن الطاعات يكون سببا في قسوة القلب وكثرة الرين عليه ، قال ﷻ : ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ المطففين ١٤.

وقوله ﷻ ﴿ **فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ..**﴾ الحديد ١٦ .

(٩) التعريف التاسع : لأبي جعفر الخلدي (ت٣٤٨هـ) .

" **طرح النفس في العبودية ، والخروج من البشرية ، والنظر إلى الحق بالكلية** .(٢٢)

فيرى أبو جعفر أن التصوف مبني على أصول ثلاثة:-

إلقاء النفس في ساحة العبودية :

﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ الذاريات ٥٦

تصفية النفس من حظوظها البشرية حتى تستقر على الطاعة ويكون هواها مشاهدتها لخالقها ومولاها ؛ حتى تكون أهلا للنداء يوم القيامة :

﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي** ﴾ الفجر ٢٧-٣٠ .

أن يكون كل عمل تحت سمع الله وبصره ، وهذا هو الإحسان .

---

(٢١) عوارف المعارف ــ السهروردي ــ تحقيق د٠عبد الحليم محمود ج١ص٣٠١-٣٠٧ .
(٢٢) اللمع للطوسي ص٤٠-٤١ .

(١٠) التعريف العاشر : لأبي الحسن الخضري (ت٣٧١هـ) .

عرف التصوف بأنه " **من كان وجده وجوده ، وصفاته حجابه** " (٢٣) فالمتصوف كما يرى أبو الحسن لا يتصف بالوجود الحقيقي إلا إذا كان في حال الوجد مع الله فينكشف له الوجود الحقيقي ، وهو وجود الله تعالى، فإذا كان له وجود يكون منتسبا للوجود الأبدي ولا ينفصل عن هذا الوجود ، كما يرى أن الصفات البشرية بمطالبها الدنيوية تصنع حجابا بينها وبين المعبود ، وتبعدها عن عين الموجود .

(١١) التعريف الحادي عشر : لأبي سعيد بن أبي الخير (٤٤٠هـ) .

يقول التصوف هو " **أن تتخلى عن كل ما في دماغك ، وتجود بكل ما في يدك ، ولا تجزع لشيء أصابك** " (٢٤)

يرى أبو سعيد أن التصوف يبنى على ثلاثة أمور :-

١- ترك التدبير حسب مطالب النفس .

٢- البذل والعطاء بكل ما يجود به الخالق .

٣- الرضا والتسليم لله في كل الأمور ، فما دامت الأمور تسير بحكمة فما على العبد إلا أن يقبلها من المنعم سبحانه .

(١٢) التعريف الثاني عشر : لأبي علي الروزبادي (٤٥٠هـ) .

يقول أبو علي:" **الصوفي من لبس الصوف على الصفا ، وأطعم نفسه طعام الجفا ، ونبذ الدنيا وراء القفا ، وسلك سبيل المصطفى** " (٢٥)

فالمتصوف عند أبي علي يشير إلى أن المتصوف يستعمل الخشن من الملبس وترك المفاخر من الثياب ، فالمقصود ستر الجسد من الخارج

---

(٢٣) تذكرة الأولياء ـ فريد الدين العطار ج١ص١٥ .

(٢٤) كشف المحجوب ـ الهجويري ص٢٤٠ .

(٢٥) عوارف المعارف ـ لشهاب الدين السهروردي ـ القاهرة ١٩٣٩م ـ ص٤٥ .

والاهتمام بصفاء القلب ؛ لأنه منظور الله ﷻ ، وإطعام الجفا : هو طعام الفقراء وحسبه لقيمات يقمن صلبه ، ثم يعمل على المجاهدة في ترك متع الدنيا وجعلها خلفه والآخرة أمامه فيستعد لها بالمحافظة على فعل الطاعات والبعد عن المحرمات ، ثم يسلك سبيل رسول الله ﷺ فهو القدوة الحسنة في كل شيء .

ولقد اخترت هذه التعريفات للتصوف ، وهي على سبيل المثال لا الحصر، وجميعها يشير إلى بعض معاني التصوف ، مثل الزهد والأخلاق ، والتوكل ، والصفاء ، والقرب ، والمعاملة مع الله ﷻ وغير ذلك من المعاني ، ومع اختلافها من حيث الشكل والمضمون فهي لا تعطينا تعريفا جامعا بحيث يدل بألفاظه القليلة على المعنى المطلوب ، وهذا راجع إلى أن التصوف مواهب من الله ﷻ لمن يصطفيه من عباده ، والله يعطي من فيض رحمته من يشاء كيف يشاء ، قال الله ﷻ :

﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس ﴾ الحج ٧٥ .

فالتصوف تجربة خاضعة للسالك يتذوقها ويعبر عنها بوجدانه حسب فيض الله عليه ، ولما كانت التجربة شخصية ولا يستطيع أحد أن يعبر عنها غير صاحب التجربة نفسه اختلفت التعريفات باختلاف التجارب والمواهب التي يكون عليها كل سالك ، وعددها بعدد أفراد المريدين والمحبين والمتعاملين مع الله ﷻ .

وكل هذه المعاني موجودة في القرآن الكريم ، فهو النور والشفاء ، فمع كتاب الله نعيش في ساحة هذه المعاني الكريمة .

والتصوف يشمل كل هذه التعريفات وليس مقصورا على أحدها ؛ لأنه بحر عظيم يشرب منه من أذن الله له ، وكل يعبر عن مذاقه الخاص .

الفصل الثالث .

مدارج التصوف .

(أ) تعريف المقام .

(ب) المقامات :-

(١) التوبة . (٢) الزهد . (٣) التجريد .

(٤) الخوف . (٥) الصبر . (٦) الشكر .

(أ) تعريف المقام .

١- للإمام الشعراني في حقيقة المقام تعريف : " أنه الشيء الذي تحقق به العبد من التوبة والزهد والورع والخوف والرجاء ."(٢٦)

ويرى أن الحال مقدمة للمقام ، فإذا استمر ودام أصبح مقاما .

ويقول الطوسي : " معنى المقام : مقام العبد بين يدي الله فيما يقوم فيه من العبادات والمجاهدات والرياضيات . "(٢٧)

٢- يقول الإمام القشيري : " الأحوال مواهب والمقامات مكاسب ، والأحوال تأتي من عين الجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود . "(٢٨)

وعلى هذا يكون معنى الحال ما قاله القشيري : " الحال معنى يرد على القلب من غير تعمد منه ولا اجتلاب ولا اكتساب . " (٢٩)

ويقول السهروردي : " حقيقة الحال التغير ، وسمي حالا لتحوله ، والمقام لثبوته واستقراره . "(٣٠)

(٢٦) عوارف المعارف للسهروردي ج٤ على هامش الإحياء .
(٢٧) اللمع للطوسي ـ تحقيق د.عبد الحليم محمود ص٦٥ .
(٢٨) الرسالة القشيرية ـ تحقيق د.عبد الحليم محمود ج١ ص١٩١
(٢٩) الرسالة القشيرية ـ تحقيق د.عبد الحليم محمود ج١ ص١٩٢
(٣٠) إيقاظ الهمم في شرح الحكم ـ السهروردي ص١٠٠-١٠١ .